يدنها للالمان . وكان بعد عودته الى لندن يخطب في الادب والتاريخ ويقيم الحفلات لذلك . ونقدماحصل من ارتقاء التمدن المزعوم وصنف عدة كتب منها تاريخ فردريك الثاني الالماني وفيه يدرس تلامذة المدارس الجندية الالمانية تاريخ فردريك . ويقول أميرسون الفيلسوف الاميركاني ان كتابه هذا هو أبدع ما كتب من الاسفار التي تشف عن عقل وفضل .

أبدع كارلايل في كتابة التاريخ على طريقة حديثة على عكس سائر الكتاب فهو يضم شتاته على نسق مقدمات العلوم وطريقته ان يعول على من ساعدتهم العناية الربانية فكانوا خيرة قومهم وخاصة بني جلدتهم . ومن رأيه ان لكل عصر مزاياه واهواؤه وحاجاته ومفاسده تتجسد في بطل من الابطال . وان الرجال الحق وحدهم ان يحكموا العالم ويصرفوه تحت أمرهم . فللقائد كرومفل ونابليون ان يكونا وحدهما مثال الرجولية الحقيقية . قال وإن كل مجتمع يرأسه ضعاف العقول ينتهي بالانحلال . وعلى هذا الفكر بنى طريقته في الفلسفة التاريخية ـ هذه زبدة ماورد في دائرة المعارف الفرنسوية الكبرى وغيرها في ترجمة هذا الرجل العظيم .

الصحافة العربية

مضت نحو ثمانية عقود من السنين منذ انشئت أول صحيفة عربية انشأها محمد علي الكبير في هذه العاصمة وسماها الوقائع المصرية وانشأ رفاعة الطهطاوي أول مجلة علمية سماها روضة المدارس . دامت الوقائع الى اليوم وانقطع نشر الثانية بعد ان صدرت أربع عشرة سنة . وما لبثت الصحافة ان ولدت ونمت في أرض سورية ثم انتقلت الى مصر في أواخر القرن الماضي

وأوائل هذا القرن ودبت فيها ودرجت . فكأن الله خص مصر بان تزكو تحت سمائها الاعمال العلمية كما تزكو تربتها بالاعمال الزراعية

وما برحت الآمال معقودة بان تبلغ الصحافة عما قليل أشدها ورشدها لتضاهي صحافة الامم الراقية في موضوعاتها وتأثيراتها اذ أن العقلاء يذهبون الى ان صحافتنا مازالت حالها على ما انتهت اليه غير متناسبة مع عمرها الطويل . والمعمر في الاعم من حالاته يشتد ساعده وزنده وتقوى ملكة عقله وعلمه بكثرة تجاربه وأسباب رويته . ولا خير في أمة لايقوم بشؤونها شيوخ تفاخر باعمالهم مفاخرتها بعقولهم وطول أعمارهم .

لاجرم ان تخلف الصحافة عن بلوغ مراقي الفلاح الحقيقي لاول أمرها ناجم عن كونها نشأت وسط أمة لاتعترف بالعلم الا لرؤساء الاديان وهؤلاء لايعدون من العلم في شيء إلا ما بحث في الأخرويات أو الزهديات أو الجدليات . وبين ظهراني أدباء يزعمون ان الادب عبارة عما الفوه من مدّ اطناب الاطناب في اطراء الكبراء والاسخياء وأرباب المظاهر والاغتراف من بحر المديح بالطويل العريض . وبين كتاب لايعتقدون الكتابة الا فيما اصطلحوا عليه من كتابة الصكوك والعقود والمواثيق . وبين عظماء موقنين بان رؤساء الدين والعلم والادب اتباع لهم . هكذا كان العلم والادب في دور الصحافة الاول . ولا يفوتك العلم بان من تنبهوا لها كانوا يشاكلون قومهم بعض المشاكلة في أدبهم وأخلاقهم لانهم أبناء ذاك الوسط الذي هم بعض أفراده وسلالة تلك الطينة الشرقية التي جبلت بيد الضعة وصهرت بقطران المسكنة . ويعلم الباحثون في عقول الفصائل البشرية ان الشرقي ذكي مفطور على حب التقليد خصوصاً اذا تهيأت له الاسباب فقد نجد المصري أو السوري يتعلم شيئاً من لغات

الغربيين فلا يعتم ان يقلدهم في مناحيهم وأطوارهم أما من ذهب الى بلادهم ودخل مدارسهم فانه يكون مثلهم الا القليل . غير ان تقليدنا الغربيين في صحافتهم قد ابطأ وكان من حقه ان يتقدم كل تقليد . ذلك ان المجلات الدورية على مافي اكثرها من المحاسن والفوائد لا يزال بعضها يعرف بالتقليد ويكتب بلسان التقية على ان العلم لادين له ولا نزعة . أما الجرائد السياسية فتكاد تكون نمطاً واحداً في انشائها واخبارها . ناهيك بما في بعضها من التضارب في الآراء والمذاهب . ولو خلت من هذه الشائبة وكان لها مواد وافرة تستعيض بها عن تجسيم الاخبار وبناء قبة من حبة لكان فيها خير ذخر ينفع العقول ويقودها الى مهيع السداد وجواد الاسعاد . وليس العلم كالسياسة في مسائل المغالطة والسفسطة فان جوزهما فريق في السياسة حباً بالمصلحة فانهما لا يسوغان في العلم بحال من الاحوال

يعيب المغاربة على المشارقة تقلبهم في مآربهم وحركاتهم . وهذا التقلب محسوس في بعض جرائدنا فانها كدوارة الهواء في الافكار تنتسب اليوم الى حزب وتستميت في الدفاع عنه حتى اذا لم تصادف من ورآئه مغنماً أو تؤنس من أهله فتوراً تنقلب عليه وتنسى اليوم ما ذكرته أمس . وليس معنى هذا اني لا أقول بالاحزاب فان الاختلاف بين الناس ضروري على شريطة ان يخلص صاحب المبدإ في أقواله وأفعاله ويعتقد صحته ويتفانى في نصرته دون ان يغمط حق خصمه وينقص منه . وحبذا لو طرحت مسائل التشيع للاحزاب جانباً واشتغل أرباب الجرائد السياسية في بث أدب وفضيلة وتأييد كلمة حق نافعة . وما التحزب للاحزاب لو أنصفنا الا ضرب من ضروب الخراب وكل بيت ينشق على نفسه يخرب . وما أشبه بأهل البصيرة

ان يختفوا من هذه النغمة فقد ضربوا على وترها أعواماً وأعوام والحال ما استحالت، والاقوال ما نجعت، بل ازدادت النفوس اشمئزازاً والصدور إيغاراً . ومن سوء طالع هذه البلاد ان معظم بنيها لا يرون الامور بل لا يريدون ان يرونها الا من جهة واحدة .

ومن الغريب دعوى بعضهم في أن غير هذه البضاعة في العلم والسياسة لا تنفق في سوق الأمة لانها ما فتئت في الجهالة غارقة والصحيح ان التاجر الماهر يصرف ضروب السلع في معرض بضاعته اذا أجاد مصنوعاته وأحسن بياعاته . الا ترى الى رواج انواع من الصحف ما كان يحلم برواجها . تهيأ لها الرواج عند ما صحت عزائم القائمين بها وأخلصوا القصد في نشرها ولا يضر العمل الصالح اذا تصدى بعض ضعاف العقول الى التزهيد في خطته فما قط اجتمعت كلمة العامة والخاصة على استحسان شيء وكذلك لا يضر الصحف ويحول دون انتشارها ما يوعز به بعض انصار التقليد في العلم الى اليوم من الرغبة عن مطالعتها لانها مفسدة منقصة فان امثال هؤلاء المثبطين عن كل جديد نافع هم الحلمة الطفيلية في العمران ، وكل من حال دون أسباب العلم والعرفان ، هو العضو المؤوف في جسم الانسان

زار صديق لي من كتاب الصحف منذ سنين رجلاً ذا شهرة طائلة موسوماً بشعار العلم في احدى المدن الكبرى وله من التلامذة والمريدين صنوف فعرفه اليه بعضهم وقال له : هذا فلان من شيء الجريدة الفلانية . فقال وما هي الجريدة . فانشأوا يشرحونها له حتى فهمها ولكن بعد ان بح صوت الشارح في شرحه لمحدثه عن معنى الجريدة وهو يستغرب وجود شيء في العالم يعرف بهذا الاسم . فانقلب صاحبنا من لدن ذاك الرجل مغرباً في الضحك متعجباً

من أناس في مثل هذا العصر جاهلين بأحوال العالم الى هذا الحد بعيدين عن حوادث الايام . وعندي ان أمثال هذا الرجل لا يفيد الصحف تنشيطه وتثبيطه . والمعارف اليوم كسيل جارف تودي بمن لا يجاري الدهر ويمشي مع الأيام والجامدون كثار في كل جيل وقبيل وليسواهم المطالين برواج بضاعة القلم أو المقصودين بالنفع من المكتوب . ولئن يهدي الله بهذا صعلوكاً صغيراً خير من إضاعة الوقت في ممارسة شيوخ الجمود وكهوله وشبانه .

وكلما تأملت الصحف وآراء طبقات الناس فيها استنتج ان من توفروا على نشرها أول النهضة كان معظمهم من العامة الذين لا يجنون من الجرائد غير ما تأتي به من الربح المادي وبعبارة أخرى كانوا تجاراً لا اصحاب دعوة الى اصلاح أو ارادة في بث علم وفضيلة ، وسماسرة أقوال ، لا صيارفة عقول ، وجهابذة جربذة لا جهابذة ، افعال . دع عنك سيد الصحفيين في الدور الاول احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب في الاستانة فانه أحسن الاضطلاع بوظيفة الصحافي وتمت على يده حسنات كثيرة من خدمة اللغة والادب والعلم والسياسة لان غرضه لم يكن مادياً محضاً . وان ما نراه اليوم من ارتقاء بعض الصحف السياسية فالفضل له فيه لانه واضع أساسها الحقيقي وما نراه من انحطاط بعضها فمنشأوه أولئك العامة الذين انشأوا الجرائد في الدور الاول وغرضهم الدنيا من أي الطرق أتت وما نشهده من ارتقاء بعض المجلات فمصدره رفاعة الطهطاوي في مجلته روضة المدارس وما منزلة رفاعة في العلم بخافية على دارس تاريخ النهضة العلمية في هذه الديار .

ولقد قامت بعد ذاك العهد مئات من الصحف الاخبارية والعلمية ثم سقطت وانتشرت ثم انتثرت شأن كل نهضة في أولها خصوصاً في بلاد

يغلب على اهلها القول حتى اذا حقت كلمة الفعل تضاءلت نفوسها ابناؤها وأعوزهم الثبات والصبر . وما عهد في تاريخ الحياة الاجتماعية ان عملا نجح فيه صاحبه دون التشبث باهداب عامة أسباب النجح وتهيئة المعدات الضرورية من علم وعمل ومال ورجال اللهم الا في الشرق فان معظم من ينجحون فبالاتفاق هذا وقد نفعت الصحف على قلة نصرائها في تنوير العقول وتحسين ملكة المنثور والمنظوم فانتقل زمرة من العامة بادمان مطالعتها من طور العامية الى طور العالمية . ولكم كانت الجرائد والمجلات باعثة على تعلق بعضهم بالمطالعة حتى صارت لهم عادة وجبلة وفتحت لهم طريق البحث والدرس . وسقياً ليوم تتأصل فيه الحرية الحقيقية في أخلاق الامة فتذكر المحسن باحسانه والمسيء باساءته . ورعياً لعهد نرى فيه لقادة الافكار من تعليمهم الحر ما يلتزمون به القصد فلا الى تفريط ينهجون ولا في الافراط يسترسلون . وقد خطب حاكم الهند منذ مدة متخرجي المدرسة الجامعة بكلكتا فقال ان المبالغة من شأن جرائد تلك البلاد فهلا خطب فينا من يحسن وصف جرائدنا هذه . وبعد فهذا رأي مولع بالصحف على اختلاف ضروبها منذ صغره بل خاطر صحافي خدم الصحافة سنين كثيرة صرح به على جليته غير مداس ولا مؤالس والله يعلم وانتم لا تعلمون